□ علو الهمة في الإخلاص □

من وجد الله فماذا فقد !! ومن فقد الله فماذا وجد !!

متى صحّ منك الودُّ فالكلُّ هيِّنٌ وكلُّ الذي فوق التراب ترابُ

إذا اطَّلع الخبير على الضمير فلم يجد في الضمير غير الخبير ، جعل فيه سراجًا مُنيرًا .

قال عبد الله بن عروة بن الزبير : أشكو إلى الله عيبي ما لا أترك ، ونعتي ما لا آتي ، إنما نبكي بالدين للدنيا[1] .

ويرحم الله الفضيل بن عياض: أدركنا الناس وهم يُراءون بما يعملون، فصاروا الآن يُراءون بما لا يعملون .

ياإخوتاه ، قولوا لمن لم يكن صادقًا : لا تتعنَّى .

قال يحيى بن أبي كثير : تعلَّموا النية ، فإنها أبلغ من العمل[2] .

قال الفضيل : من لم يكن في عمله أكيس من ساحر ؛ وقع في الرياء .

لله دَرُّهُـمْ ، كم راعوا هذه الكلمة في أقوالهم وحركاتهم وسكناتهم وبكائهم !

قال نعيم بن حمَّاد : ضربُ السياط أهونُ علينا من النية الصالحة .

ياإخوتاه ، أعربنا في القول ، ولحنَّا في العمل ، وإخلاصُنا يحتاج إلى إخلاص .

كان طبيب القلوب الفضيل بن عياض يقول : إذا كان يَسأَلُ الصادقين عن صدقهم، مثل إسماعيل وعيسى عليهما الصلاة والسلام؛ فكيف بالكذَّابين

---

(١) الزهد والرقائق صـ ٦٤ .

(٢) الحلية ٣ / ٧٠ .

من أمثالنا .

وكان رحمه الله إذا قرأ ﴿ **ونبلو أخباركم** ﴾ يقول : اللهم إنك إن بَلَوْتَ أخبارَنا ؛ فضحْتنا وهتكْت أستارنا ، وأنت أرحمُ الراحمين .

لله ما أحلى هذا الكلام !!

كان كلامهم دواءً للخطّائين . قال مالك : أما رأيتموهم ؟ ثم يرجع إلى نفسه ، فيقول : بلى ! والله لقد رأيناهم : الحسن ، وسعيد بن جبير ، وأشباههم ، الرجل منهم يُحيي الله بكلامه الفئام من الناس .

ويرحم الله إبراهيم بن أدهم إذ يقول : كان العلماء إذا علموا عملوا ، فإن عملوا شُغِلوا ، فإن شُغِلوا فُقدوا ، فإن فُقِدوا طُلبوا ، فإن طُلبوا هربوا .

سُئل الإمام أحمد بن حنبل عن الصِّدق والإخلاص ؟ فقال : بهذا ارتفع القوم .

نعم ياإخوتاه ، بضاعة الآخرة لا يرتفع فيها إلا مُخلِصٌ صادقٌ !

ياإخوتاه ، الإخلاص مِسْكُ القلب ، وماءُ حياتِهِ ، ومدارُ الفلاح كلهِ عليه .

قال تعالى : ﴿ **وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مُخلصين له الدين حنفاء ويُقيموا الصلاة ويُؤتوا الزكاة وذلك دينُ القيمة** ﴾ [البينة : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ **قل إن صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرتُ وأنا أول المسلمين** ﴾ [الأنعام : ١٦٢، ١٦٣] .

وقال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مُخلصًا له الدين ألا لله الدين الخالص ...** ﴾ [الزمر : ٢، ٣] .

قال أبو عثمان المغربي : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق .

قال سهل بن عبد الله التستري : نظر الأكياس في تفسير الإخلاص ،

فلم يجدوا غير هذا : أن تكون حركتُه وسكونُه في سرِّه وعلانيته لله تعالى ، لا يُمازجه شيء ؛ لا نفس ، ولا هوى ، ولا دنيا .

قال ابن عباس : إنما يُحفظ الرجلُ على قدْر نيَّته .

فحفظ القلب من الخيانة والحقد ؛ إنما هو بالإخلاص :

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع : « نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها ، فرُبَّ حامل فقهٍ ليس بفقيه ، ثلاثٌ لا يُغَلُّ[١] عليهن قلبُ امرئ مؤمن : إخلاص العمل لله ، والمُناصحة لأئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعاءهم يُحيط من ورائهم »[٢] .

وتحفظ الأمة وتنصر بإخلاص رجالها :

قال رسول الله ﷺ : « إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها ؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم »[٣] .

وعن أُبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « بَشِّرْ هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عَمَل الآخرة للدنيا ؛ لم يكن له في الآخرة من نصيب »[٤] .

---

(١) هو من الإغلال : الخيانة في كل شيء ، يروى « يَغِلُّ » بفتح الياء من الغِل وهو الحقد والشحناء ؛ أي لا يدخله حقد يُزيله عن الحق ، وروي « يُغَل » بالتخفيف، و «عليهن» في موضع الحال، تقديره: لا يغل كائنًا عليهن قلب مؤمن.

(٢) رواه البزار ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب : إسناده حسن ، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١ / ٥ : صحيح .

(٣) صحيح : رواه النسائي وغيره ، وهو في البخاري وغيره دون ذكْر الإخلاص ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب ١ / ٦ .

(٤) صحيح : رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/١٥-١٦.

وعند البيهقي : « بشِّر هذه الأمة بالتيسير والسناء والرفعة بالدين والتمكين في البلاد والنصر ، فمن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا ؛ فليس له في الآخرة من نصيب » .

فالنجاة : أن لا يُمازج العمل ما يشوبُه من شوائب إرادات النفس ؛ إما طلبُ التزيُّن في قلوب الخلق ، وإما طلبُ مدحهم ، والهرب من ذمِّهم ، أو طلبُ تعظيمهم ، أو طلبُ أموالهم ، أو خدمتهم ، أو محبَّتهم ، وقضائهم حوائجه ، أو غير ذلك من العلل والشوائب ، التي عقدُ مُتفرِّقاتها هو : إرادة ما سوى الله بعمله ، كائنًا ما كان .

قيل لحمدون بن أحمد : ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ قال : لأنهم تكلَّموا لعزِّ الإسلام ، ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعزِّ النفوس ، وطلب الدنيا ، ورضا الخلق[1] .

فاعقل درجتك ، ولا تزهو عند الخلق ، وجوهرُك جوهر الفضائح ، وسيماك سيما الأبرار، وعُدَّ نفسك مع أنفُس الكذّابين، وروحك مع أرواح الهلكى ، وبدنك مع أبدان المُذنبين .

وأقبلْ على تعلُّم الإخلاص ، فوالله إنّ علْمَه خيرُ العلم ، وفقْهَه الفقهُ كُلُّ الفقهِ .

قالت رُقيَّة العابدة : تفقَّهوا في مذاهب الإخلاص ، ولا تفقَّهوا فيما يؤدِّيكم إلى ركوب القلاص .

ولا نجاة ولا فقْه إلا مع سير السلف الصالحين ... فقد كان الشيوخُ في قديم الزمان أصحاب قدَمٍ .. والطلابُ أصحابَ أَلَمٍ ، فذهب القدمُ والألمُ ، اليوم لا غُصَّة ولا قصَّة .. وإن التربية بالقدوة خيرُ وسائل التربية .

والحكايات عن سلفنا جُندٌ من جنود الله تعالى، يُثبِّتُ الله بها قلوبَ أوليائه.

---

(١) صفة الصفوة ٤ / ١٢٢ .

قال الإمام أبو حنيفة : الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إليَّ من كثير من الفقه ؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم .

قال تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾ [يوسف: ١١١].

وقال تعالى لنبيه : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ... ﴾ [الأنعام : ٩] .

قال مالك بن دينار : الحكايات تحفُّ الجنة .

وقال الجنيد : الحكايات جندٌ من جنود الله عز وجل ، يُقوِّي بها إيمان المريدين ، فقيل له : هل لهذا من شاهد ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ **وكُلًّا نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نُثبِّت به فؤادك** ﴾ .

«وخير وسيلة لإشعال العزائم، وإثارة الروح الوثَّابة، وقدْح المواهب، وإذكاء الهِمَم ، وتقويم الأخلاق ، والتسامي إلى معالي الأمور ، والترفُّع عن سَفْسَافها ، والائتساء بالأسلاف الأجلّاء - هو قراءة سِيَر النُّبغاء الصُّلحاء ، والتملِّي من اجتلاء مناقب الصالحين الربَّانيين ، والاقتراب من العلماء النُّبهاء العاملين المُجدِّين . فذلك خير مهماز لرفع الهِمَم ، وشدِّ العزائم ، وسُمُوِّ المقاصد ، وإنارة القلوب ، واحتلال ذُرَى المجد الرفيع ، واغتنام الباقيات الصالحات ، وإخلاص النيَّات »(١) .

وهذه نقطة من بحار السلف ... وعجائبهم ... فارعها قلبَك ، وإن كانت غريبة في عالمنا ... وأي شيء عندهم لا يكون اليوم غريبًا ، ولسان حالهم يقول :

تركنا البحارَ الزاخراتِ وراءنا فمن أين يدري الناسُ أنَّا توجَّهنا

---

(١) «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتخصيل» لأبي غدة صـ ١٧-١٨، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب .

الإخلاص في الصلاة :

فهذا الربيع بن خثيم تلميذ عبد الله بن مسعود الذي قال فيه عبد الله بن مسعود : ياأبا يزيد ، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبَّك ، وما رأيتُك إلا ذكرتُ المُخبتين ، وكان إذا دخل على عبد الله بن مسعود لم يكن عليه إذنٌ لأحد ، حتى يفرغ كل واحد من صاحبه(١) .

ما رُئي الربيع مُتطوِّعًا في مسجد قومه قطُّ إلا مرة واحدة .

وعامر بن عبد قيس : ما رُئي مُتطوِّعًا في المسجد قط(٢) .

قال أبو تميم بن مالك : كان منصور بن المعتمر إذا صلى الغداة ؛ أظهر النشاط لأصحابه ، فيُحدِّثهم ويُكثر إليهم ، ولعله إنما بات قائمًا على أطرافه ، كل ذلك ليُخفي عليهم العمل(٣) .

وهذا السليم الأسلم المذكور بالسواد الأعظم ، الطوسي محمد بن أسلم ، قال خادمه أبو عبد الله : صحبتُ محمد بن أسلم نيِّفًا وعشرين سنة لم أره يُصلي حيث أراه من التطوع إلا يوم الجمعة ، ولا يُسبِّح ولا يقرأ حيث أراه ، ولم يكن أحد أعلمَ بسرِّه وعلانيته مني ، وسمعتُه يحلف كذا كذا مّرة أن لو قدرتُ أن أتطوع حيث لا يراني ملكاي لفعلتُ ، ولكن لا أستطيع ذلك ؛ خوفًا من الرياء(٤) .

وهذا شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك نورُ مروٍ وجمالُها ، ونجمُها وهلالُها ، يقول عنه محمد بن أعين - وكان صاحبه في أسفاره ، وكان كريمًا

---

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٠٦ .

(٢) الزهد لابن حنبل صـ ٢٢٣ .

(٣) صفة الصفوة ٣ / ١١٤ .

(٤) صفة الصفوة ٤ / ١٢٦ ، الحلية ٩ / ٢٤٣ .

عليه -: كان ذات ليلة ونحن في غزاة الروم ، ذهب ليضع رأسه ليُريني أنه ينام ، فقلتُ : أنا برمحي في يدي قبضت عليه ، ووضعتُ رأسي على الرمح كأني أنام كذلك ، قال : فظنَّ إني قد نمتُ ، فقام فأخذ في صلاته ، فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر وأنا أرمُقُه ، فلمّا طلع الفجر أيقظني وظنّ أنّي نائم ، وقال : يامحمد ، فقلتُ : إني لم أنم . قال : فلما سمعها مني ما رأيتُه بعد ذلك يُكلِّمني ولا ينبسط إليَّ في شيء من غزاته كلها ، كأنه لم يُعجبْه ذلك مني ، لما فطنتُ له من العمل ، فلم أزل أعرفها فيه حتى مات ، ولم أر رجلًا أسرَّ بالخير منه[1] .

وقال علي بن الحسن بن شقيق : لم أر أحدًا من الناس أقرأ من ابن المبارك ولا أحسن قراءةً ، ولا أكثر صلاةً منه ، كان يُصلِّي الليل كله في السفر وغيره ، وإنما ترك النوم في المحمل ؛ لأنه كان يُصلِّي ، وكان الناس لا يدرون .

وهذا سيِّدُ الفتيان ، وفتى العُبَّاد والزُّهبان : السختياني ؛ أيوب بن كيسان ، يقوم الليل كلهُ ، فيُخفي ذلك ، فإذا كان عند الصبح رفع صوته ، كأنه قام تلك الساعة[2] .

ولكن كيف يُخفي الليلُ بدرًا ساطعًا ؟!

أسائل عمن لا أريدُ وإنما　　أريدكمُ من بينهم بسؤالي
فيعثر ما بين الكلام ورجعهِ　　لساني بكم حتى ينمَّ بحالي
وأطوي على ما تعلمون جوانحي　　وأُظهرُ للعذّال أني سالي

رحمك الله ياسيِّد الفقهاء ؛ لسان حالك يقول :

أُكلِّفُ القلبَ أن يهوى وأُلزمُه　　صبرًا وذلك جمعٌ بين أضدادِ

---

(١) الجرح والتعديل ١ / ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
(٢) حلية الأولياء ٣ / ٨ .

وأكتمُ الركبَ أوطاري وأسألُهُ حاجاتِ نفسي لقد أتعبتُ زوَّادي
هل مدلجٌ عنده من مبكرٍ خبر وكيف يعلمُ حالَ الرائح الغادي

وكان ابن أبي ليلى إذا دخل داخل وهو يُصلي اضطجع على فراشه .

أفدي ظباءَ فلاةٍ ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبْغَ الحواجيبِ[1]

وهذا زيْنُ القراء محمد بن واسع ، يقول عنه أبو الطَّيب موسى بن بشّار : صحبتُ محمد بن واسع من مكة إلى البصرة ، فكان يُصلِّي الليل أجمع في المحمل جالسًا يومىء برأسه إيماءً ، وكان يأمر الحادي يكون خلفه ، ويرفع صوته حتى لا يفطن له، وكان ربما عرَّس من الليل فينزل فيُصلِّي، فإذا أصبح أيقظ أصحابه رَجُلًا رَجُلًا، فيجيء إليه فيقول: الصلاة الصلاة[2] .

وهذا نجيب بني أمية عمر بن عبد العزيز :

كانت له درَّاعةٌ من شَعْرٍ ، وغُلٌّ ، وكان له بيتٌ في جوف بيت ، يُصلِّي فيه ، لا يدخل فيه أحدٌ ، فإذا كان في آخر الليل فتح ذلك السفط ، ولبس تلك الدرَّاعة ، ووضع الغلَّ في عُنقه ، فلا يزال يُناجي ربه ويبكي ، حتى يطلع الفجر[3] .

قال أبو إسحاق كعب الأحبار صاحب الكتب والأسفار : من تعبَّد لله ليلة حيث لا يراه أحد يعرفه ، خرج من ذنوبه كما يخرج من ليلته[4] .

وأبو سلمة مسعر بن كدام ، يقول عنه ابنه محمد : كان أبي لا ينام حتى يقرأ نصف القرآن ، فإذا فرغ من وِرْده لفَّ رداءه ، ثم هجع عليه هجعة خفيفة ، ثم يثِبُ كما يثِبُ الرجلُ الذي فُقد منه شيء فهو يطلبه ، وإنما هو

---

(١) المدهش لابن الجوزي صـ ٤١٥ .
(٢) حلية الأولياء ٢ / ٣٤٦ .
(٣) حلية الأولياء ٥ / ٢٩١ .
(٤) حلية الأولياء ٥ / ٣٨٣ .

السواك والطهور ، ثم يستقبل المحراب فكذلك إلى الفجر ، وكان يجتهد على إخفاء ذلك جدًّا(١) .

وحسان بن أبي سنان ، تقول عنه زوجه : كان يجيء فيدخل في فراشي ، ثم يُخادعني كما تخادع المرأة صبيَّها ، فإذا علم أني نمتُ سلَّ نفسه فخرج، ثم يقوم فيُصلِّي، قالت: فقلتُ له: ياأبا عبد الله، كم تُعذِّب نفسك، ارفق بنفسك ، فقال : اسكتي ، ويحك ، فيوشك أن أرقد رقدةً لا أقوم منها زمانًا(٢) .

صدقة السِّر :

ولله ما أحلى قول نبينا ﷺ في السبعة الذين يُظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه : « ورجلٌ تصدَّق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شمالُه ما تُنفقُ يمينُه » .

ولبيت النبوة القدّحُ المعلَّى في ذلك :

فهذا زيْنُ العابدين علي بن الحسين رحمه الله يقول عنه أبو حمزة الثمالي : كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل ، فيتصدَّق به ، ويقول : إن صدقة السرِّ تطفيء غضب الرب عزَّ وجلَّ .

وعن شيبة بن نعامة : كان علي بن الحسين يُبَخَّل ، فلما مات وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة .

قال جرير : إنه حين مات وجدوا بظهره آثارًا مما كان يحمل بالليل الجِرَب إلى المساكين .

وقال عمرو بن ثابت : لمّا مات علي بن الحسين فغسَّلوه ؛ جعلوا ينظرون إلى آثار سواد بظهره ، فقالوا : ما هذا ؟ فقيل : كان يحمل جِرَبَ

(١) حلية الأولياء ٧ / ٢١٦ .
(٢) حلية الأولياء ٣ / ١١٧ .

الدقيق ليلًا على ظهْره ،يُعطيه فقراء أهل المدينة .

وعن محمد بن إسحاق : كان ناس من أهل المدينة يعيشون ، لايدرون من أين كان معاشهم ، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يُؤتون به في الليل .

وعن ابن عائشة قال : قال أبي : سَمعتُ أهل المدينة يقولون : ما فقدنا صدقة السرّ حتى مات علي بن الحسين[١] .

هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأتَهُ ... والبيتُ يعرفُهُ والحِلُّ والحرمُ
يكادُ يمسكه عرفانُ راحتِهِ ... عند الحطِيم إذا ما جاء يستلمُ
إذا رأته قريشٌ قال قائلُها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرمُ

وشيخ الإسلام عبد الله بن المبارك ، يقول عنه محمد بن عيسى : كان ابن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس ، وكان ينزل الرَّقة في خانٍ ، فكان شابٌّ يختلف إليه ، ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث ، فقدم عبد الله مرّة فلم يره ، فخرج في النفير مُستعجلًا ، فلما رجع سأل عن الشابِّ ، فقال : محبوس على عشرة آلاف درهم ، فاستدلّ على الغريم ، ووزن له عشرة آلاف، وحلَّفه ألا يُخبر أحدًا ما عاش، فأخرج الرجل، وسرى ابن المبارك، فلحقه الفتى على مرحلتين من الرّقة ، فقال لي : يافتى ، أين كنت ، لم أرك ؟ قال: ياأبا عبد الرحمن، كنت محبوسًا بدَيْن. قال: وكيف خلصت ؟ قال : جاء رجل فقضى دَيْني ولم أدر ، قال : فاحمد الله . ولم يعلم الرجل إلا بعد موت عبد الله[٢] .

الصــوم :

وإذا ذُكر الصومُ وإخفاؤه ، فاذكر داود بن أبي هند .

---

(١) حلية الأولياء ٣ / ١٣٥ - ١٣٦ .
(٢) تاريخ بغداد ١٠ / ١٥٩ .

صام داود بنُ أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله ولا أحد ، وكان خزَّازًا ، يحمل معه غداءه من عندهم ، فيتصدَّق به في الطريق ، ويرجع عشيًّا فيُفطر معهم[١] ، فيظنُّ أهلُ السوق أنه قد أكل في البيت ، ويظنُّ أهله أنه قد أكل في السوق .

ومستخبرٍ عن سرِّ حُبِّي رددتُهُ فأصبح في حُبِّي بغير يقينِ
يقولون خبِّرنا فأنت حبيبُه وما أنا إن خبَّرتهم بأمينِ

وعمرو بن قيس الملائي : أقام عشرين سنة صائمًا ، ما يعلم به أهلُه ، يأخذ غداءه ويغدو إلى الحانوت، فيتصدق بغدائه، ويصوم، وأهله لا يدرون. وكان إذا حضرته الرقّة ، يُحوِّل وجهَه إلى الحائط ، ويقول لجلسائه : ما أشدّ الزكام[٢] .

وعن المسيح عيسى ابن مريم قال : إذا كان صومُ يوم أحدكم ، فليدهنْ أو ليمسحْ شفتيه من دهنه ، حتى ينظر إليه الناظر ، فلا يرى أنه صائم ، وإذا صلَّى أحدكم في بيته فليُخف عليه ستره ، فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق[٣] .

وعَلَمُ الزهاد أبو محفوظ معروف الكرخي : سُئل : كيف تصوم ؟ فغالط السائل وقال : صوم نبينا ﷺ كان كذا وكذا ، وصوم داود كذا وكذا ، فألحَّ عليه ، فقال : أُصبح دهري صائمًا ، فمن دعاني أكلتُ ، ولم أقل إني صائم[٤] .

قال إبراهيم بن أدهم : لا تسأل أخاك عن صيامه ، فإن قال : أنا

---

(١) صفة الصفوة ٣ / ٣٠٠ .
(٢) صفة الصفوة ٣ / ١٢٤ .
(٣) الزهد لهنَّاد بن السري ، ورجاله ثقات .
(٤) تاريخ بغداد ١٣ / ٢٥٢ ، وسير أعلام النبلاء ٩ / ٣٤١ .

صائم فرحتْ نفسُه بذلك، وإنْ قال: أنا غير صائم حزنت نفسه، وكلاهما من علامات الرياء، وفي ذلك فضيحة للمسئول واطِّلاع على عوراته من السائل.

الذِّكْر وقراءة القرآن :

قالت سُرِّية الربيع بن خثيم : كان عملُ الربيع كلُّه سرًا ، إن كان ليجيء الرجل ، وقد نشر المصحف ؛ فيُغطِّيه بثوبه[1] .

قال ابن الجوزي : كان إبراهيم النخعي إذا قرأ في المصحف فدخل داخل غطَّاه[2] .

وإمام أهل السنة أحمد بن حنبل ، يقول عنه تلميذه أبو بكر المروزي : كنتُ مع أبي عبد الله نحوًا من أربعة أشهر بالعسكر ، وكان لايدع قيام الليل وقراءات النهار ، فما علمت بختمة ختمها ، وكان يُسرُّ بذلك .

قال رجل خراساني للإمام : الحمد لله الذي رأيتُك ، فقال له : اقعدْ ، أي شيء ذا ؟ ومن أنا ؟

رحمك الله يا إمام، والله لأنت أولى الناس بقولك: القلانس من السماء تنزل على رؤوس قوم يقولون برؤسهم هكذا وهكذا . والمعنى أنهم لا يُريدون الرئاسة ، وهي تقع عليهم .

قال الإمام أحمد : أشتهي ما لا يكون ... أشتهي مكانًا لا يكون فيه أحد من الناس .

كان شيخ الإسلام إذا أصبح النهار يخرج إلى الصحراء، ويقول مُتمثِّلًا:

وأخرج مِنْ بين البيوت لعلَّني ... أُحدّث عنك القلبَ بالسر خاليا

---

(١) حلية الأولياء ٢ / ١٠٧ .

(٢) المدهش صـ ٤١٥ .

البكـــاء :

قال الثوري : البكاء عشرة أجزاء ؛ تسعة لغير الله ، وواحد لله ، فإذا جاء الذي لله في السنة مرة فهو كثير[١] .

لشدّ ما حاسبوا أنفسهم ودّققوا ... حتى الدموع ياأمير المؤمنين في الحديث !!.

قال سفيان: إذا استكمل العبد الفجور ملك عينيه، يبكي بهما متى يشاء.

هذا العالم العابد ، الإمام المُدقِّق ، سفيان الثوري ، له مع الفضيل بن عياض– طبيب القلوب– وقفة يحكيها لنا الأصبهاني في حلية الأولياء (٧/٦٤): التَقى سفيان الثوري وفضيل بن عياض فتذاكرا ، فبكيا ، فقال سفيان : إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظمَ مجلسٍ جلسناه بركةً . قال فضيل : ترجو، لكني أخاف أن يكون أعظمَ مجلسٍ جلسناه علينا شؤمًا، أليس نظرتَ إلى أحسن ما عندك ، فتزيَّنتَ به لي ، وتزيَّنت لك به ، فعبدتَني وعبدتك . قال فبكى سفيان حتى علا نحيبه ، ثم قال : أحياك الله كما أحييتني .

وهذا أيوب السختياني : كان في ثوبه بعضُ الطول لستر الحال ، وكان إذا وعظ فرقَّ ؛ فَرَقَ من الرياء ، فيمسح وجهه ويقول : ما أشدّ الزُّكام !!

أحبس دمعي فيند شاردًا كأنني أضبطُ عبدًا آبقَا
ومن محاشاة الرقيب خلتُني يوم الرحيل في الهوى منافقا[٢]

قال ابن الجوزي : كان ابن سيرين يتحدَّث بالنهار ويضحك ، فإذا جاء الليل فكأنه قتل أهل القرية .

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا الليل هزَّتني إليك المضاجعُ
أُقضِّي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهمّ بالليل جامع

---

(١) الحلية ٧ / ١١ .
(٢) المدهش ٤١٤ .

كان خوفهم من الرياء يُوجب مدافعة النهار ، فإذا خلوْا بالحبيب لم يصبر الشوق .

أحنُّ بأطرافِ النهارِ صبابـةً وفي الليل يدعوني الهوى فـأُجيبُ
وأيامُنا تفنـى وشوقي زائـدٌ كأنَّ زمانَ الشوق ليس يغيبُ[1]

قال الحسن البصري : إن كان الرجل ليجلسُ المجلس ، فتجيئه عبرته فيردّها ، فإذا خشى أن تسبقه قام[2] .

قال عبد الكريم بن رشيد: كنت في حلقة الحسن، فجعل رجل يبكي وارتفع صوته ، فقال الحسن : إن الشيطان ليُبكي هذا الآن[3] .

وعن عيسى بن زاذان قال : يأتي على الناس زمان ؛ يسكن الشيطان في أعين الناس ، فمن شاء أن يبكي بكى[4] .

عن عاصم قال : كان أبو وائل إذا صلَّى في بيته ينشُجُ نشيجًا ، ولو جُعلت له الدنيا على أن يفعله وأحدٌ يراه ما فعله[5] .

يقول زيْنُ القرّاء محمد بن واسع : لقد أدركتُ رجالًا ، كان الرجل يكون رأسُه مع رأس امرأته على وسادة واحدة ، قد بلَّ ما تحت خدِّه من دموعه، لا تشعر به امرأته، ولقد أدركتُ رجالًا، يقوم أحدهم في الصف، فتسيل دموعُه على خدِّه ، ولا يشعر به الذي إلى جنبه[6] .

والله إنها لأغرب من الخيال ... !!

---

(١) المدهش .
(٢) الزهد لأحمد بن حنبل صـ ٢٦٢ .
(٣) الزهد لأحمد صـ ٢٧٣ .
(٤) الزهد لأحمد صـ ٢٧٥ .
(٥) الزهد لأحمد صـ ٣٥٨ .
(٦) حلية الأولياء ٢ / ٣٤٧ .

حالت لفقدكمُ أيامُنا فغدتْ سودًا وكانت بكم بيضًا ليالينا
مَنْ مُبلِغُ الملبسينا عنا بانتزاحهم حزنا مع الدهر لا يبلى ويُبلينا
أن الزمانَ الذي قد كان يُضحكُنا أُنْسًا بقربهمُ قد عاد يُبكينا
ليُسقَ عهدُكمُ عهدُ السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينَا

قال محمد بن واسع : إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به(١) .

قال حمّاد بن زيد : دخلنا على محمد بن واسع في مرضه نعوده . قال : فجاء يحيى البكَّاء يستأذن عليه ، فقالوا : ياأبا عبد الله ، هذا أخوك أبو سلمة على الباب . قال : منْ أبو سلمة ؟ قالوا : يحيى . قال : منْ يحيى ؟ قالوا : يحيى البكَّاء . قال حمَّاد : وقد علم أنه يحيى البكَّاء ؟! فقال : إن شرّ أيامكم يومٌ نسبتم فيه إلى البكاء(٢) .

قال سفيان بن عُيينة : أصابتني ذات يوم رِقَّةٌ فبكيتُ ، فقلتُ في نفسي: لو كان بعض أصحابنا لرقَّ معي، ثم غفوتُ، فأتاني آتٍ في منامي، فرفسني ، وقال : ياسفيان ، خذْ أجرك ممّنْ أحببتَ أن يراك .

عن القاسم بن محمد قال : كنا نسافر مع ابن المبارك ، فكثيرًا ما كان يخطر ببالي ، فأقول في نفسي : بأي شيء فضُل هذا الرجل علينا ، حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة ، إن كان يُصلِّي إنا لنُصلِّي ، وإنْ كان يصوم إنا لنصوم ، وإن كان يغزو فإنا لنغزو ، وإن كان يحجّ إنا لنحجّ ؟! قال : فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشَّى في بيت، إذ طُفِيء السِّراج، فقام بعضنا فأخذ السِّراج، وخرج يستصبح، فمكث هنيهة، ثم جاء بالسراج، فنظرتُ إلى وجه ابن المبارك ، ولحيته قد ابتلَّت من الدموع ، فقلتُ في

(١) حلية الأولياء ٢ / ٣٤٧ .
(٢) حلية الأولياء ٢ / ٣٤٧ .

نفسي : بهذه الخشية فضُل هذا الرجل علينا ، ولعلّه حين فُقد السراج فصار إلى ظُلْمةٍ ذكر القيامة[١] .

وهذا شيخ الإسلام محمد بن أسلم الطوسي ، يقول عنه خادمه أبو عبد الله : كان محمد يدخل بيتًا ويُغلق بابه ، ويُدخل معه كوزًا من ماء ، فلم أدر ما يصنع ، حتى سمعتُ ابنًا صغيرًا له يبكي بكاءه ، فنهتْه أُمُّه ، فقلتُ لها : ما هذا البكاء ؟ فقالت : إن أبا الحسن يدخل هذا البيت ، فيقرأ القرآن ويبكي ، فيسمعه الصبي فيحكيه ، فكان إذا أراد أن يخرج غسل وجهه ؛ فلا يُرى عليه أثرُ البكاء . وكان يصل قومًا ويُعطيهم ويكسوهم ، فيبعث إليهم ، ويقول للرسول : انظر أن لا يعلموا مَنْ بعثه إليهم ، فيأتيهم هو بالليل ، فيذهب به إليهم ، ويُخفي نفسه ، فربما بليتْ ثيابُهم ، ونفد ما عندهم ، ولا يدرون مَنِ الذي أعطاهم[٢] .

لله دَرُّك ياأبا الحسن !!

لما مات الطوسي قالوا لأحمد بن نصر : ياأبا عبد الله ، صلَّى عليه ألفَ ألفٍ من الناس ، وقال بعضهم : ألف ألفٍ ومائة ألفٍ من الناس ؛ يقول صالحهم وطالحهم : لم نعرف لهذا الرجل نظيرًا ، فقال أحمد بن نصر : ياقوم ، أصلِحوا سرائركم بينكم وبين الله ، ألا ترون رجلًا دخل بيته بطوس ، فأصلح سرَّه بينه وبين الناس ، ثم نقله الله إلينا ، فأصلح الله على يديه ألف ألفٍ ومائة ألفٍ من الناس[٣] .

الدعـاء :

قال ابن المنكدر : إني لَلَيلة حذاء هذا المنبر جوف الليل أدعو ، إذا

---

(١) صفة الصفوة ٤ / ١٢١ .

(٢) حلية الأولياء ٩ / ٢٤٣ .

(٣) حلية الأولياء ٩ / ٢٤٠ - ٢٤١ .

إنسانٌ عند أُسطوانة ، مقنِّعٌ رأسَه ، فأسمعه يقول : أيْ رب ، إن القحط قد اشتدَّ على عبادك ، وإني مُقسِمٌ عليك يارب إلا سقيتَهم ! قال : فما كان إلا ساعة ، إذا بسحابة قد أقبلت ، ثم أرسلها الله سبحانه ، وكان عزيزًا على ابن المنكدر أن يخفى عليه أحدٌ من أهل الخير ، فقال : هذا بالمدينة ولا أعرفه ؟! فلما سلَّم الإمام تقنَّع وانصرف ، فاتَّبعه ، ولم يجلس للقاصّ ، حتى أتى دار أنس ، فدخل موضعًا ، وأخرج مفتاحًا ففتح ثم دخل . قال : ورجعتُ ، فلما سبَّحت أتيتُه ، فإذا أنا أسمع نجرًا في بيته ، فسلمتُ ، ثم قلتُ : أدخل ؟ قال : ادخل ، فإذا هو ينجر أقداحًا يعملها ! فقلت : كيف أصبحتَ أصلحك الله ؟ قال : فاستشهدها وأعظَمَها مني ، فلما رأيتُ ذلك ، قلتُ : إني سمعتُ إقسامك البارحة على الله عز وجل . ياأخي ، هل لك في نفقة تغنيك عن هذا ، وتُفرِّغُك لما تُريد من الآخرة ؟ فقال : لا ! ولكن غير ذلك لا تذكرْني لأحد ، ولا تذكرْ هذا عند أحد حتى أموت ، ولا تأْتِني ياابن المنكدر ، فإنك إن تأْتني شهرتني للناس ، فقلتُ : إني أُحبُّ أن ألقاك ، قال : القني في المسجد ، وكان فارسيًّا . قال : فما ذكر ذلك ابن المنكدر لأحد حتى مات الرجل . قال ابن وهب : بلغني أنه انتقل من ذلك الدار ، فلم يره ولم يدر أين ذهب ، فقال أهل تلك الدار : الله بيننا وبين ابن المنكدر ، أخرجَ عنا الرجل الصالح[١] .

العلـم :

قال الشافعي : وددتُ أنَّ الخلق تعلموا هذا[٢]، على أن لا يُنسَب إليَّ حرفٌ منه .

وقال عون بن عمارة: سمعتُ هشامًا الدستوائيَّ يقول: والله ما أستطيع

---

(١) حلية الأولياء ٣ / ١٥٢ .

(٢) يقصد عِلْمَهُ .

أن أقول : إني ذهبتُ يومًا قطُّ أطلبُ الحديث أُريد به وجه الله عز وجلّ .

قال الذهبي: والله ولا أنا، فقد كان السلف يطلبون العلم لله؛ فنبلوا...

فنسأل الله النجاةَ والعفو ، كما قال بعضهم : ما أنا عالم ولا رأيتُ عالمًا[١] .

والإمام أبو الحسن الماوردي علي بن محمد بن حبيب شيخ الشافعية . قيل : إنه لم يُظهر شيئًا من تصانيفه في حياته ، وجمعها في موضع ، فلما دنت وفاتُه ؛ قال لمن يثق به : الكتب التي في المكان الفلاني كُلُّها تصنيفي ، وإنما لم أُظهرها ؛ لأني لم أجد نيَّة خالصة ، فإذا عاينتُ الموت ووقعت في النزع ؛ فاجعل يدك في يدي ، فإن قبضتُ عليها وعصرتُها ؛ فاعلم أنه لم يُقبل مني شيء منها ، فاعمد إلى الكتب وألقها في دجلة ، وإن بسطتُ يدي ولم أقبض على يدك ؛ فاعلم أنها قد قُبلت ، وأني قد ظفرتُ بما كنتُ أرجوه من النيّة .

قال ذلك الشخص: فلما قارب الموتَ وضعتُ يدي في يده؛ فبسطها ولم يقبض على يدي، فعلمتُ أنها علامة القبول، فأظهرت كُتُبَه بعده.

قلتُ[٢]: لعلَّ هذا بالنسبة إلى «الحاوي»، وإلا فقد رأيتُ من مُصنَّفاته غيره كثيرًا، وعليه خطُّه، ومنه ما أكملتُ قراءته عليه في حياته[٣].

الزهـــد :

هذا عَلَمُ الزُّهَّاد أيوب السختياني يقول: ليتَّقِ الله رجلٌ، فإن زهد فلا يجعلنَّ زهده عذابًا على الناس؛ فَلأَنْ يُخفي الرجل زهده خيرٌ من أن يُعلنه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧ / ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) أي التاج السبكي صاحب كتاب طبقات الشافعية الكبرى .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٥ / ٢٦٨ - ٢٦٩ .

قال حمَّاد : وكان أيوب ممّن يُخفي زُهْدَه ؛ دخلنا عليه فإذا هو على فراش مخنس أحمر ، فرفعتُه ، أو رفعه بعض أصحابنا ، فإذا خَصَفَة محشوَّة بليف[(١)] .

وكان الإمام الربَّاني العابد هارون بن رئاب يُخفي الزهد ويلبس الصوف تحت ، وكان النور على وجهه[(٢)] .

الجهـــاد :

قال رسول الله ﷺ : « لَصوتُ أبي طلحة في الجيش خيرٌ من ألف رجل »[(٣)] ... فهذا صوتُه ، فكيف رُمحُهُ ؟!

وقال رسول الله ﷺ : « كم من أشعث أغبر ذي طِمرين ، لا يُؤبَه له ، لو أقسم على الله لأبرَّه ؛ منهم البراء بن مالك »[(٤)] .

وقال ﷺ: «رُبَّ ذي طمرين لا يُؤبَه له، لو أقسم على الله لأبرَّه»[(٥)] .

وقال ﷺ: «رُبَّ أشعثٍ مدفوع بالأبواب، لو اقسم على الله لأبرَّه»[(٦)] .

لقي البراء المشركين وقد أوجع المشركون في المسلمين ، فقالوا له : يا براء ، إن رسول الله ﷺ قال : إنك لو اقسمتَ على الله لأبرَّك ، فأقسِمْ على ربك . قال : أُقسِمُ عليك يارب لما منحتنا أكتافهم ... وذكر الحديث ، وانتصر المسلمون في هذه المعركة بإخلاص البراء ودعائه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦ / ١٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٥ / ٢٦٣ .

(٣) صحيح : أخرجه الحاكم عن جابر ، وصححَّه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٩٥٧) .

(٤) حسن صحيح : أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك .

(٥) صحيح: رواه البزار عن مسعود، وصححَّه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٤٨١).

(٦) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة .

وهذا الصحابي العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه : يخوض البحر على فرسه في يوم دارين ، ومعه جيش المسلمين ، فما ابتلّ لهم سرْجٌ ... يجوزون الخليج ... وإنَّ ما بين دارين والساحل مسيرة يوم وليلة لسفر البحر ، يقول عفيف بن المنذر :

ألم تر أن الله ذلَّل بحْرَهُ وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دعونا الذي شقَّ البحارَ فجاءنا بأعجب من فلْق البحار الأوائل

وكان أبو هريرة يقول : رأيتُ من العلاء ثلاثة أشياء ، لا أزال أُحِبُّه أبدًا : قطع البحر على فرسه يوم دارين ، وقدم يُريد البحرين ، فدعا الله بالدَّهناء ، فنبع لهم ماءٌ فارتووا . ونسي رجلٌ منهم بعض متاعه ، فردَّ ، فلقيه ، ولم يجد الماء . ومات ونحن على غير ماء ، فأبدى الله لنا سحابةً ، فمطرنا ، فغسَّلناه ، وحفرنا له بسيوفنا ودفناه ، ولم نلحد له(١) .

وقد أسنده ابن أبي الدنيا عن عبد الملك بن سهم عن سهم بن منجاب قال : غزونا مع العلاء الحضرمي ... فذكره . وقال في الدعاء : ياعليم ، ياحليم ، ياعليّ ، ياعظيم ، إنا عبيدُك ، وفي سبيلك نُقاتل عدوَّك ، اسقنا غيثًا نشرب منه ونتوضأ ، فإذا تركناه فلا تجعل لأحد فيه نصيبًا غيرنا . وقال في البحر : اجعل لنا سبيلًا إلى عدوِّك . وقال في الموت : اخفِ جثتي ، ولا تُطلِع عورتي أحدًا ، فلم يُقدَرْ عليه .

وعند البيهقي مرسلًا : قال : فحفرنا له وغسَّلناه ودفناه ، فأتى رجلٌ بعد فراغنا من دفنه ، فقال : مَنْ هذا ؟ فقلنا : هذا خيرُ البشر ، هذا ابن الحضرمي ، فقال إن هذه الأرض تلفظ الموتى ، فلو نقلتموه إلى ميل أو ميلين ؛ إلى الأرض تقبل الموتى ، فقلنا : ما جزاء صاحبنا أن نُعرِّضه للسباع تأكله ، قال : فاجتمعنا على نبشه ، فلما وصلنا إلى اللحد إذا صاحبنا ليس

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٢٦٥ - ٢٦٦ .

فيه ، وإذا اللحد مدُّ البصر نور يتلألأ ، قال : فأعدنا التراب إلى اللحد ، ثم ارتحلنا[١] .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا ياجريرُ المجامعُ

وسيِّدُ فرسان الحديث عبد الله بن المبارك ... وما أدراك ما عبد الله ابن المبارك !!

قال عبدة بن سليمان : كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم ، فصادفنا العدو ، فلما التقى الصفَّان ؛ خرج رجل من العدو ، فدعا إلى البراز ، فخرج إليه رجل ، فطارده ساعة ، فطعنه فقتله ، ثم آخر فقتله ، ثم آخر فقتله ، ثم دعا إلى البِراز ، فخرج إليه رجل ، فطارده ساعة ، فطعنه فقتله ، فازدحم عليه الناس ، وكنت فيمن ازدحم عليه ، فإذا هو يلثم وجهه بِكُمِّه ، فأخذتُ بطرف كُمِّهِ فمددتُه ، فإذا هو عبد الله بن المبارك ، فقال : وأنت يا أبا عمرو ممن يُشنِّع علينا[٢] ... ممن يُشنِّع !! وكأن في الأمر إظهارًا للمساوىء ... إن كانت هذه مساوىء ، فكيف بالحسنات !!

ولهذه القصة أختٌ عند عمر ، وبذكر عمر تطيبُ المجالس :

قضاء حوائج المسلمين :

قال طلحة بن عبيد الله : خرج عمر ليلة في سواد الليل ، فدخل بيتًا ، فلما أصبحتُ ذهبتُ إلى ذلك البيت ، فإذا عجوز عمياء مُقعدة ، فقلتُ لها : ما بال هذا الرجل يأتيكي ؟ فقالت : إنه يتعاهدُني مدة كذا وكذا ، يأتيني بما يُصلحني، ويُخرج عني الأذى فقلتُ لنفسي: ثكلتْك أُمُّك ياطلحة، أعثرات عمر تُتَّبع ؟!![٣] .

---

(١) البداية والنهاية ٥ / ١٦٣ .

(٢) صفة الصفوة ٤ / ١١٩ .

(٣) البداية والنهاية ٧ / ١٣٩ - ١٤٠ .

وهذه عشرات ... تبارك خالق هذه الهمم !!

أصحاب السرائر والخوف من الشهرة :

قال عبد الرحمن بن مهدي : قلت لابن المبارك : إبراهيم بن أدهم ممن سمع ؟ قال قد سمع من الناس ، وله فضلٌ في نفسه ، صاحبُ سرائر ، وما رأيتُه يُظهر تسبيحًا ، ولا شيئًا من الخير ، ولا أكل مع قوم قط ، إلا كان آخر مَنْ يرفع يده[١] . كان إبراهيم يقول : أعربنا في الكلام ، ولحنّا في العمل .

قال سفيان : كان إبراهيم بن أدهم يُشبه إبراهيم الخليل ، ولو كان في الصحابة لكان رجلًا فاضلًا .. له سرائر ، وما رأيتُه يُظهر تسبيحًا ولا شيئًا[٢] .

قال إبراهيم بن أدهم : ما صدق الله عبدٌ أحبَّ الشهرة[٣] .

لله ما أندى ذكرك ياابن أدهم من صادق ، وافق عملك قولَك !!

ذكر إبراهيم بن أدهم نِطارَتَهُ الرُّمَّان ، وقال الخادم له : أنت تأكل فاكهتنا ، ولا تعرف الحُلو من الحامض ؟ قلت : والله ما ذقتُها ، فقال : أتراك لو أنك إبراهيم بن أدهم ، فانصرف فلما كان من الغد ، ذكر صفتي في المسجد ، فعرفني بعض الناس ، فجاء الخادم ومعه عُنُق[٤] من الناس ، فاختفيتُ خلف الشجر، والناس داخلون، فاختلطت معهم وأنا هارب[٥] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧ / ٣٩٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧ / ٣٩٠ ، والبداية والنهاية ١٠ / ١٣٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٧ / ٣٩٣ .

(٤) العُنُق : الجماعة من الناس والرؤساء .

(٥) السير ٧ / ٣٩٦ .

يقول إمام الوعاظ ابن الجوزي في المدهش صـ ٤١٥ :

اشتهر ابن أدهم ببلد ، فقيل : هو في البستان الفلاني ، فدخل الناس يطوفون ويقولون : أين إبراهيم بن أدهم ؟ فجعل يطوف معهم ويقول : أين إبراهيم بن أدهم ؟!

ضنًّا بأن يعلمَ الناسُ الهوى ولمن   وهبتُ للسرّ فيه لذة العلنِ
عرِّضْ بغيري ودعني في ظنونهم   إنْ قيل مَنْ بك يُخفي الحق في الظّنن

مرض إبراهيم بن أدهم ، فجعل عند رأسه ما يأكله الأصحّاء ؛ لئلا يتشبَّه بالشاكين ، هذه والله بهرُجة أصحُّ من نقدك .

قد سحب الناسُ أذيالَ الظنون بنا   وفرّق الناسُ فينا قولَهم فرقا
فكاذبٌ قد رمى بالظن غيرَكم   وصادقٌ ليس يدري أنه صَدَقا

قال الإمام الحافظ القدوة عبد الله بن داود الخُرَيْبي : كانوا يستحبُّون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح ، لا تعلمُ به زوجتُه ولا غيرها[١] .

وانظر إلى العلاء بن زياد العدوي الذي قال فيه الحسن البصري : إلى هذا والله انتهى استقلال الحزن .

قال له رجل : رأيتُ كأنك في الجنة ، فقال له : ويحك !! أما وجد الشيطان أحدًا يسخر به غيري وغيرك[٢] .

وإبراهيم النخعي الإمام الفقيه : كان لا يجلس إلى السارية - العمود - في المسجد ، توقيًا للشهرة .

وكان يقول : تكلَّمتُ ، ولو وجدتُ بُدًّا ما تكلّمتُ ، فإن زمانًا أكونُ فيه فقيه الكوفة لَزمانُ سوء[٣] .

(١) سير أعلام النبلاء ٩ / ٣٤٦ - ٣٥٢ .
(٢) حلية الأولياء ٢ / ٢٤٥ .
(٣) الحلية ٤ / ٢٢٣ ، وصفة الصفوة ، سير أعلام النبلاء .

وكان يقول :

خلت الديارُ فسُدْتُ غير مُسوّدِ ومن البلاء تفرُّدي بالسؤدد

وكان محمد بن يوسف الأصبهاني عروس الزهاد لا يشتري زاده من خبَّاز واحد. قال: لعلهم يعرفوني فيحابوني، فأكون ممن أعيش بديني[١].

وأبو محيريز عبد الله بن مُحيريز الذي قال فيه رجاء بن حيوة : إن كنتُ لأُعُدُّ بقاء ابن مُحيريز أمانًا لأهل الأرض .

عن بشير بن صالح قال : دخل ابن مُحيريز حانوتًا بدانق ، وهو يريد أن يشتري ثوبًا ، فقال رجل لصاحب الحانوت : هذا ابن مُحيريز ، فأحسن بيْعَه ، فغضب ابن مُحيريز وخرج ، وقال : إنما نشتري بأموالنا ، لسنا نشتري بديننا .

وكان ابن محيريز يقول : اللهم إني أسألك ذكْرًا خاملًا .

قال عبد الله بن عوف القاري : لقد رأيتُنا برودس ، وما في الجيش أحدٌ أكثر صلاةً من ابن مُحيريز في العلانية ، ثم أقصر عن ذلك حين شُهر وعُرِف[٢] .

وهذا الإمام المرضيُ ، الوَرِعُ التَّقي ، أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري ، الذي كانت له النّكتُ الرائقة ، والتُّحَفُ الفائقة ، المُسلَّم له في الإمامة ، المُثبت به الرعاية ، مَنْ كان العلْمُ حليفه والزهدُ أليفه ، الذي قال فيه شعبة : سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث .

قال ابن المبارك : قال لي سفيان : إياك والشهرة ، فما أتيتُ أحدًا إلا وقد نهاني عن الشهرة[٣] .

---

(١) الحلية ٨ / ٢٣١ .

(٢) صفة الصفوة ٤ / ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٣) الحلية ٧ / ٢٣ .

قال خلف بن تميم : رأيتُ سفيان الثوري بمكة وقد أكثر عليه أصحاب الحديث ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أخاف أن يكون الله ضيّع هذه الأمة حيث احتجَّ إلى مثلي[١] .

يقول هذا رحمه الله ، وإمام أهل السنة أحمد يقول عنه : أتدري مَنِ الإمامُ ؟ الإمام سفيان الثوري ، لا يتقدَّمُه أحدٌ في قلبي .

وكان رحمه الله لا يترك أحدًا يجلس إليه ، إلا نحو ثلاثة أنفس ، فغفل يومًا ، فرأى الحلقة قد كبُرت ، فقام فزعًا ، وقال : أُخِذنا والله ولم نشعر ، والله لو أدرك أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه مثلي وهو جالس في هذا المجلس ؛ لأقامه وقال له : مثلُك لا يصلح لذلك .

وكان يقول : قلَّ عالمٌ تكبرُ حلقة درسه ، إلا ويدخُله العُجْبُ .

وكان رحمه الله إذا جلس لإملاء الحديث ؛ يجلس مرعوبًا خائفًا ، وكانت السحابة تمرُّ عليه ، فيسكت حتى تمرَّ ، ويقول : أخاف أن يكون فيها حجارةٌ ترجمنا بها .

وكان يقول : كل شيء أظهرتُه من عملي فلا أعُدُّه شيئًا ؛ لعجز أمثالنا عن الإخلاص إذا رآه الناس .

يقول مُعلِّم الخير والإخلاص سفيان : إن أقبح الرغبة أن تطلب الدنيا بعمل الآخرة .

قال رحمه الله : ما رأيتُ للإنسان خيرًا من أن يدخل جُحرًا[٢] .

قال الإمام أحمد : كان سفيان الثوري إذا قيل له : رُؤي في المنام ؛ يقول : أنا أعرف بنفسي من أصحاب المنامات .

وكان أشدَّ الناس بُعدًا عن السلاطين ؛ خوفًا على الإخلاص :-

---

(١) الحلية ٧ / ٦٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٠ .

قال الثوري : إن الرجل ليستعير من السلاطين الدابَّة والسرجَ أو اللجام ؛ فيتغيَّر قلبُه لهم .

وقال رحمه الله: إني لألقى الرجل أبغضُه، فيقول لي: كيف أصبحت ؟ فيلين له قلبي ، فكيف بمن أكل ثريدَهم ، ووطىء بساطَهَم[1] ؟!

وسيِّدُ البكَّائين الحسن البصري ؛ الذي يُشبه كلامُه كلامَ الأنبياء ، والذي لمَّا سُئل عنه يونس بن عبيد : هل رأيتَ من يعمل بعمل الحسن ؟ فقال : والله ما رأيتُ مَنْ يقول قولَهُ ، حتى أرى مَنْ يعملُ بعمله ... إن الحسن كان إذا تكلَّم أدمى القلوبَ ، ووعْظُ غيره لا يُبكي العيون .

يقول الحسن - الذي مكث ثلاثين سنة لا يضحك -: لقد أدركتُ أقوامًا ، ما أنا عندهم إلا لصٌّ . يقول هذا ويوقن به ، وكأنه حقيقة ؛ لأنه القائل أيضًا : من ذمَّ نفسه في الملأ فقد مدحها ، وذلك من علامات الرياء .

مرَّ الحسن على طاوس وهو يُملي الحديث في الحرم في حلقة كبيرة ، فقرب منه ، وقال له في أُذُنه : إنْ كانت نفسُك تُعجبك فقم من هذا المجلس ، فقام طاوس فورًا .

ومن بعده مرَّ إبراهيم بن أدهم على حلقة بشر الحافي ، فأنكر عليه كِبَرَ حلقة درسِهِ ، وقال : لو كانت هذه الحلقة لأحد من الصحابة ؛ ما أمن على نفسه العُجب .

بشر بن الحارث إمام أهل الورع والزهد ؛ الذي قال : ما اتقى الله مَنْ أحبَّ الشهرة ... يتعلَّم من إبراهيم بن أدهم ... بشر الذي قال الإمام أحمد بعد المحنة ، لما بلغه ثناءُ بشرٍ عليه ؛ قال : الحمد لله الذي رضَّى بشرًا بما صنعنا .

قال أحمد بن نصر : كنا قعودًا قُدّام بشر بن الحارث نفسيْن ، قال :

---

(١) حلية الأولياء ٧ / ١٧ ، ٧ / ٤١ .

فجاء الثالث ، فقام ودخل .

وبعث إليه عاصم بن علي : قد اشتدَّ شوقي إليك ، حتى كدتُ أن آتيك من غير إذن ، فعلمتُ كراهيتك لمجيء الرجال ، فإن رأيتَ أن تأذن لي فآتيك لأُسلِّم عليك ، فلعل الله أن ينفعني برؤيتك ، فقال : لا تأْتِني ، فإن في مجيئك إليّ شهرةً عليَّ وعليك .

وقال رحمه الله : لقد شهرني في الدنيا ، فليته لا يفضحني في القيامة . ما أقبح مثلي !! يُظنُّ فيَّ ظنٌّ وأنا على خلافه ، إنما ينبغي لي أن أكون أكبر مما يُظنُّ بي ، إني أكره الموت ، وما يكره الموت إلا مُريب ، ولولا أني مُريب ، لأي شيء أكره الموت ! .

وكان يقول : اللهم استُرْ ، واجعل تحت السِّتر ما تُحبُّ ، فربما سترتَ على ما تكره .

صلَّى رحمه الله ، فقال في سجوده : اللهم إنك تعلمُ فوق عرشك أن الذلَّ أحبُّ إليّ من الشرف ، اللهم إنك تعلمُ فوق عرشك أن الفقر أحبُّ إليّ من الغنى ، اللهم إنك تعلمُ فوق عرشك أني لا أوثر على حُبِّك شيئًا ، فسمعه رجلٌ ، فأخذه الشهيق والبكاء ، فلما سمع الرجل ؛ قال : اللهم إنك تعلمُ أني لو أعلم أن هذا هاهنا لم أتكلم .

قال بشر : لا ينبغي لأمثالنا أن يُظهر من أعماله الصالحة ذرَّة فكيف بأعماله التي دخلها الرياء ، فالأولى بأمثالنا الكتمان !

وشيخ الحجاز سفيان بن عيينة ، قيل له : ألا تجلس فتحدِّثنا ؟ فقال : والله ما أراكم أهلًا لأنْ أُحدِّثكم ، ولا أرى نفسي أهلًا أن تسمعوا مني ، وما مثلي ومثلكم إلَّا كما قال القائل : افتضحوا فاصطلحوا .

وانظر إلى تحقيرهم لأنفسهم وإزرائهم عليها :

أخذ الفضيل بن عياض بيد سفيان بن عيينة إلى الوادي ، وقال له : إن كنتَ تظنُّ أنه بقي على وجه الأرض شرٌّ مِنّي ومنك ؛ فبئس ما تظنُّ .

وكان محمد بن أسلم الطوسي شيخ الإسلام يقول : والذي لا إله إلا هو ، ما رأيتُ نفسًا تُصلّي إلى القبلة شرًّا عندي من نفسي[١] .

وقال السري السقطي : ما أُحِبُّ أن أموتَ حيث أعرف ، فقيل له : ولِمَ ذاك يا أبا الحسن ؟ قال : أخاف أن لا يقبلني قبري فأُفتضَح[٢] .

وكان مالك بن دينار يقول : إذا ذُكر الصالحون فأفٍّ لي وتُفٍّ .

وقال أيوب السختياني : إذا ذُكر الصالحون كنتُ عنهم بمعزل .

وقال يونس بن عُبيد : إني لأعرف مائة خصلة من خصال البرِّ ، ما فيَّ منها واحدة .

وقال الفضيل : منْ أراد أن ينظر إلى مُراءٍ فلينظر إليَّ .

وقال مطرف بن عبد الله لمّا وقف بعرفة : اللهم لا تردَّهم من أجلي .

وقال بكر بن عبد الله المزني : ما أشرفه من مقام وأرجاه لولا أني فيهم .

قال قتادة : قال عيسى بن مريم : سلوني فإن قلبي ليِّن ، وإني صغير في نفسي[٣] .

وقال محمد بن واسع زين القرّاء : لو كان يوجد للذنوب ريحٌ ؛ ما قدرتم أن تدنوا مني من نَتْن ريحي[٤] .

وانظر إلى داود الطائي الذي كان ابن المبارك يقول فيه : وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائي :

يقول رحمه الله : سبقني العابدون وقُطع بي ، وَا لَهْفَاهُ !!

وهو الذي قيل له : لِمَ لا تُسرِّح لحيتك ؟ قال : إني عنها مشغول .

---

(١) الحلية ٩ / ٢٤٤ .

(٢) حلية الأولياء ١٠ / ٩٨ ، ٩٩ .

(٣) الزهد لأحمد صـ ٥٨ .

(٤) صفة الصفوة ٣ / ٢٦٨ .

قال داود : ولو يعلم الناسُ بعض ما نحن فيه ؛ ما ذَلَّ لنا لسانٌ بذكر خير أبدًا[١] .

وقال رحمه الله : تركتنا الذنوبُ ، وإنا لنستحي من كثير من مجالسة الناس .

رحمك الله ياداود، تقول: تركَتْنا الذنوبُ، ولا تقول: تركْنا الذنوبَ !!

وقال شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك: أُحِبُ الصالحين ولستُ منهم، وأبغضُ الطالحين وأنا شرٌّ منهم[٢] .

عن شعيب بن حرب قال : بينا أطوف بالبيت ؛ إذا رجل يشدُّ ثوبي من خلفي ، فالتفتُّ فإذا بفُضيل بن عياض ، فقال : لو شفع فيَّ وفيك أهل السماء ؛ كنا أهلًا أن لا يشفع فينا ، قال شعيب : ولم أكن رأيتُه قبل ذلك بسنة ، قال : فكسرني ، وتمنيْتُ أني لم أكن رأيتُه[٣] .

وعن علي بن الحسن قال : بلغ فُضيلًا أنّ جريرًا يُريد أن يأتيه . قال : فأقفل الباب من خارج . قال : فجاء جرير فرأى البابَ مُقفلًا فرجع . قال عليٌّ : فبلغني ذلك ، فأتيته فقلت له : جرير ، فقال : ما يصنع بي ؟ يُظهر محاسن كلامه ، وأُظهِرُ له محاسن كلامي ، فلا يتزيَّن لي ولا أتزيَّن له خيرٌ له[٤] .

وقال الفضيل : إني لأسمع صوت حلقة الباب ، فأكره ذلك ؛ قريبًا كان أم بعيدًا ، ولوددت أنه طار في الناس أني قد متُّ ، حتى لا أسمع له بذكر ، ولا يسمع لي بذكر ، وإني لأسمع صوت أصحاب الحديث ،

---

(١) حلية الأولياء ٧ / ٣٥٩ .
(٢) حلية الأولياء ٨ / ١٧ .
(٣) حلية الأولياء ٨ / ٩٠ .
(٤) حلية الأولياء ٨ / ٩٠ .

فيأخذني البول ، فرقًا منهم .

وكان رحمه الله يقول لأصحاب الحديث : لِمَ تُكرهوني على أمر تعلمون أني كاره له ؟ لو كنتُ عبدًا لكم فكرهتكم ، لو أني أعلم إذا دفعتُ ردائي هذا لكم ذهبتم عني ؛ لدفعته إليكم .

وقال رحمه الله : لو رأيتُ رجلًا اجتمع الناس حوله ؛ لقلتُ : هذا مجنون ، ومن الذي اجتمع الناس حوله لا يُحب أن يُجوِّد لهم كلامه !

وقال للحسين بن زياد : احفظْ لسانك ، وأقبلْ على شانك واعرف زمانك ، وأخفِ مكانك .

وقال له: عساك ترى أن في ذلك المسجد- يعني المسجد الحرام- رجلًا شرًّا منك ، إن كنت ترى فيه ، فقد ابتُليت بعظيم[1] .

وقال رحمه الله : تُريد الجنة مع النبيين والصدِّيقين ، وتُريد أن تقف المواقف مع نوح وإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، بأي عمل ، وأي شهوةٍ تركتها لله عز وجلّ ، وأي قريب باعدتَه في الله ، وأيّ بعيد قرَّبتَه في الله !! ثم قال رحمه الله : لا يترك الشيطان الإنسان ، حتى يحتال له بكل وجه ، فيستخرج منه ما يُخبر به من عمله ، لعله يكون كثير الطواف ، فيقول : ما كان أحلى الطواف الليلة ، أو يكون صائمًا ، فيقول : ما أثقل السحور ، وما أشدّ العطش ، فإن استطعت أن لا تكون مُحدِّثًا ولا مُتكلِّمًا ولا قارئًا ، إن كنتَ بليغًا ؛ قالوا : ما أبلغه وأحسن حديثه وأحسن صوته ، فيُعجبك ذلك فتنتفخ ، وإن لم تكن بليغًا ولا حسنَ الصوت ؛ قالوا : ليس يُحسِن يُحدِّث ، وليس صوتُه بحسن ؛ أحزنك وشقَّ عليك ، فتكون مرائيًا ، وإذا جلست فتكلمت ، ولم تُبال مَنْ ذمَّك ومَنْ مدحك من الله فتكلَّمْ[2] .

---

(١) حلية الأولياء ٨ / ٩٤ - ٩٥ .

(٢) حلية الأولياء ٨ / ٩١ .

عُلُوُّ هِمَّتِهِم في الإخلاص بالتجافي عن مجالس الحكَّام والسلاطين :

قيل لداود الطائي : أرأيت رجلًا دخل على الأمراء ، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ؟ قال : أخاف عليه السوط ، قال : إنه يقوى ، قال : أخاف عليه السيف ، قال : إنه يقوى ، قال : أخاف عليه الداء الدفين من العُجب(١) .

قسَّم أمير البصرة أمواله على أهل البصرة ، فبعث إلى مالك بن دينار ، فقبل ، فأتاه محمد بن واسع ، فقال : يامالك ، أقبلتَ جوائز السلطان ؟ قال : يا أبا بكر ، سلْ جُلسائي ، فقالوا : ياأبا بكر ، اشترى بهم رقابًا فأعتقهم ، فقال له محمد بن واسع : أنشُدُك الله ، أقلبُك الساعة له على ما كان قبل أن يُجيزك ؟ قال : اللهم لا ، قال : ترى أيّ شيء دخل عليك ؟ فقال مالك لجلسائه : إنما مالك حمار ، إنما يعبد الله مثلُ محمد بن واسع .

قال عطاء بن مسلم : لما استخلف المهدي بعث إلى سفيان ، فلما دخل عليه ؛ خلع خاتمه فرمى به إليه ، فقال : يا أبا عبد الله ، هذا خاتمي ، فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة ، فأخذ الخاتم بيده ، وقال : تأذن في الكلام ياأمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قال : أتكلَّم على أني آمِنٌ ؟ قال : نعم ، قال : لا تبعث إليَّ حتى آتيك ، ولا تُعطني شيئًا حتى أسألك ، قال : فغضب من ذلك وهمَّ به ، فقال له كاتبه : أليس قد أمَّنته يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلى ، فلما خرج حفَّ به أصحابه ، فقالوا : ما منعك ياأبا عبد الله ، وقد أمرك أن تعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة ؟ قال: فاستصغر عقولهم، ثم خرج هاربًا إلى البصرة(٢) .

---

(١) حلية الأولياء ٧ / ٣٥٨ .
(٢) حلية الأولياء ٧ / ٤٠ - ٤١ .

خاتمة ... مَوْقفان لجبلين من شيوخ الإسلام وعُلُوِّ هِمَّتهما في الإخلاص :

أما الأول فهو أمير المؤمنين في الحديث سفيان الثوري :

قال عبد الرزاق : بعث أبو جعفر الخشّابين حين خرج إلى مكة ، فقال : إن رأيتم سفيان الثوري فاصلبوه ، قال : فجاء النّجارون ، فصلبوا الخشب ، ونُودي سفيان ، فإذا رأسُهُ في حجر فُضَيل بن عياض ، ورجلاه في حجر ابن عُيينة ، فقالوا له : ياأبا عبد الله ، اتق الله ولا تُشمتْ بنا الأعداء ، قال : فتقدَّم إلى الأستار ، ثم دخله ، ثم أخذه وقال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر ، قال : فمات قبل أن يدخل مكة ، فأخبر بذلك سفيان فلم يقل شيئًا[١] .

قال الذهبي في السير ٧ / ٢٥١ : هذه كرامة ثابتة .

أما الخبر الثاني فهو عن شيخ الإسلام الواعظ القدوة أبو عثمان الحيري :

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤ / ٦٥) :

ذكر الحاكم أخبار أبي عثمان في خمس وعشرين ورقة ، وفي غضون ذلك من كلامه في التوكُّل واليقين والرضا ؛ قال الحاكم : وسمعتُ أبي يقول : لما قَتَل أحمد بن عبد الله الخُجستاني الذي استولى على البلاد - الإمام حَيْكان ابن الذُّهلي؛ أخذ في الظلم والعسف، وأمر بحربة رُكزت على رأس المرّبعة[٢]، وجمع الأعيان ، وحلف : إن لم يصبُّوا الدراهم حتى يغيب رأس الحربة ، فقد أحلُّوا دماءهم ، فكانوا يقتسمون الغرامة بينهم ، فخصَّ تاجر بثلاثين ألف درهم ، فلم يكن يقدر إلا على ثلاثة آلاف درهم ، فحملها إلى أبي عثمان ،

---

(١) الحلية ٧ / ٤١ - ٤٢ .

(٢) المرّبعة : خشبية قصيرة يرفع بها العدل ... وقال الأزهري : هي عصا تُحمل بها الأثقال حتى تُوضع على ظهر الدواب .

وقال : أيها الشيخ ، قد حلف هذا كما بلغك ، ووالله لا أهتدي إلّا إلى هذه ، قال : تأذن لي أن أفعل فيها ما ينفعُك ؟ قال : نعم ، ففرَّقها أبو عثمان ، وقال للتاجر : امكث عندي ، وما زال أبو عثمان يتردَّد بين السكّة والمسجد ليلته حتى أصبح ، وأذَّن المؤذِّن ، ثم قال لخادمه : اذهب إلى السوق ، وانظرْ ماذا تسمع ، فذهب ورجع ، فقال : لم أرَ شيئًا ، قال : اذهب مرة أخرى ، وهو في مناجاته يقول : وحقّك ، لا أقمتُ ما لم تفرِّج عن المكروبين ، قال : فأتى خادمه الفرغاني يقول : وكفى الله المؤمنين القتال ، شُقَّ بطن أحمد بن عبد الله ، فأخذ أبو عثمان في الإقامة .

قلتُ[1] : بمثل هذا يعظِّم مشايخ الوقت !!

بدمِ المُحبِّ يُباع وصلُهمُ فمنِ الذي يبتاعُ بالثمنِ

* * *

(١) أي الذهبي .